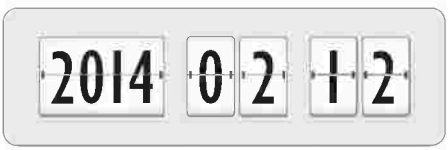

فاجأتني هيلاري اليوم إذ اتصلت وطلبت جلسة إضافية؛ ليقيني أن الأمر مهم بالنسبة إليها، وإلا لما طلبت، واصلت بقائي في العيادة بعد موعد المغادرة لاستقبالها.

سألتها، مهجوسة بنظرات الألم الواضحة: ما الخطب يا هيلاري؟

أجابت: أريد أن أحدثك عن أسوأ شيء تعرضت له؛ إنه لأمر يصعب علي كثيرًا أن أتحدث عنه، إلا أنني اكتشفت أن من الأفضل أن أبادر إلى إفراغ ما في جعبتي مباشرة فيما أنا مندفعة وإلا فلن أكون أبدًا قادرة على البوح.

علقتُ: عين الصواب.

بقيتْ صامتة إلى أن استعادت تحكمها في نفسها، ثم قالت: كما تعلمين من دون شك، ترشحت لرئاسة الولايات المتحدة وأخفقت، كنت قاب قوسين أو أدنى من البيت الأبيض، ودخل باراك أوباما على الخط في الدقيقة الأخيرة، وخرَّب كل شيء بالنسبة إلي، لا أظن أنني سأتعافى من الصدمة إلى الأبد.

كنت قد حلمت بأن أكون الرئيسة الأولى للولايات المتحدة منذ الطفولة، وكنت قد بدأت في السر أعد لترشيحي الرئاسي منذ أوائل عام 2003م، وفي العشرين من كانون الثاني عام 2006م، أعلنت على موقعي الإلكتروني عن تشكيل لجنة استكشافية رئاسية لانتخابات 2008م الرئاسية في الولايات المتحدة، قائلة بتباهٍ: «أنا في الحلبة! نازلة لأفوز!». حلَّقت تيهًا مع هتافات التأييد والاستحسان الصادرة عن الملايين في طول البلاد وعرضها.

لم يسبق لأي امرأة قبلي أن رُشحت من قبل حزب رئيس لرئاسة الولايات المتحدة، حين أصبح بل رئيسًا للجمهورية في عام 1993م، ثمة ثقة عمياء باسمنا باتت مترسخة؛ وفي نيسان/أبريل عام 2007م، شطبنا الثقة مع دخولي سباق الرئاسة، وفيما بعد ثمة تصريحات كشفت أن ثروتنا المشتركة نحن الزوجين بلغت الآن خمسين مليونًا من الدولارات، وأننا كسبنا ما يزيد على مئة مليون من الدولارات منذ عام 2000م، جاء الجزء الأكبر منه من كتاب بل ومحاضراته. تصوري بعد أن كنت أنا الداعمة له لسنوات، صار بل أخيرًا صانع ثروتنا!

سرني أن أكون في طليعة مرشحي الحزب الديمقراطي جميعهم للرئاسة في استطلاعات الرأي في النصف الأول من عام 2007م؛ فأكثرية الاستطلاعات كانت تضع كلًّا من السيناتور باراك أوباما والسيناتور السابق جون إدواردز من كارولاينا الشمالية بوصفهما المنافسين الأقرب مني، إلا أنني بقيت مطمئنة؛ فأنا معتادة على الفوز في أي منافسة أدخلها، أوباما وأنا كلانا سجل أرقامًا قياسية في حملات جمع التبرعات المبكرة، مراهنين على التفوق المالي في كل ربع، ومع حلول أيلول/سبتمبر عام 2007م، صارت استطلاعات الرأي في الولايات الست التي كان الحزب الديمقراطي يعقد فيها انتخاباته التمهيدية تشير إلى أنني الأولى في جميعها، ما أدى إلى إبقاء معنوياتي عالية، ومع حلول الشهر التالي كانت الاستطلاعات القومية تشير إلى تقدمي على منافسيّ الديمقراطيين جميعهم، يقينًا بدا كما لو كنت موشكة على أن أصبح رئيسة الجمهورية الأولى للولايات المتحدة.

غير أن ما فاجأني بعض الشيء أن ذلك لم يدم طويلًا؛ سرعان ما بدأت أقلق إزاء احتمال رجحان كفة أوباما، ولسوء الطالع تعرضت أواخر شهر تشرين الأول/أكتوبر لوعكة صحية فيما كنت منخرطة في حوار معه، وكان أدائي سيئًا إلى حد كبير، أعتقد أن تلك كانت بداية سقوطي؛ فقدرات أوباما الخطابية جنبًا إلى جنب مع رسالته الداعية إلى التغيير، بدأت تتناغم مع الديمقراطيين أكثر من تناغمهم مع سجل خبرتي، ولبعض الوقت الإضافي كنا متوازيين عنقًا لعنق، لاسيما في استطلاعات الولايات ذات التمهيديات المبكرة المتمثلة بإيوا، نيوهامبشاير، وساوث كارولاينا، غير أنني بدأت مع حلول شهر كانون الأول/ديسمبر أفقد إحساسي بالراحة والاطمئنان؛ على الصعيدين السياسي وغير السياسي.

أوائل عام 2008م كنت منحدرة إلى درك المرتبة الثالثة في مؤتمر إيوا الديمقراطي لاختيار المرشح، بعد كل من أوباما وإدواردز، وفي الأيام القليلة التالية راحت استطلاعات الرأي كلها تتنبأ بالنصر لأوباما في تمهيديات نيوهامبشاير، غير أنني نجحت في اجتراح فوز مباغت هناك بتاريخ الثامن من كانون الثاني/يناير؛ إذ هزمته بفارق بسيط ما أدى إلى تحسن حالي، أعتقد أنني نجحت لأن الجمهور ولاسيما النساء تعاطف معي أكثر، بعد رؤية عيني الدامعتين وصوتي المتهدج لدى الرد على سؤال أحد الناخبين عن الأطفال الذين يموتون جوعًا في إفريقيا، لعلي أردت أن أزعق: «انظروا، أنا لست الآنسة ثلاجة في النهاية».

غير أن طبيعة السباق تغيرت جذريًّا في الأيام القليلة التالية؛ تعرض عدد من ملاحظاتنا؛ بل وأنا، حول مارتن لوثر كنغ الابن لإساءة التفسير من قبل وسائل الإعلام، بوصفها ملاحظات تضع أوباما في خانة مرشح ذي توجه عنصري إضافة إلى الاستخفاف بمجمل إنجازاته السياسية، تصوري أن يكون أحدهم مقتنعًا بأنني؛ بل وأنا، ممن يمكن أن يطلقوا تعليقات ذات توجهات عنصرية نظرًا إلى تاريخنا الطويل من التسامح العنصري! لا أحد

يهتم بالحقيقة، الضرر وقع، ونتيجة لذلك خسرت جزءًا كبيرًا من تأييدي بين صفوف الأمريكيين الأفارقة.

كانت حملتي قد راهنت على كسب الترشيح يوم الثلاثاء الاستثنائي، ولم نكن مستعدين لجهد مالي مطول، وحين بدأت حملة جمع تبرعاتنا الإلكترونية تتعثر، أقرضت الحملة من رصيدي الخاص؛ لا بد من معرفة مدى أهمية الفوز بالرئاسة بالنسبة إلي، فأنا ابنة أبي آخر المطاف، ونحن نعرف كم كان بخيلًا.

كذلك كانت هناك شجارات متواصلة في إطار جهاز أركان الحملة، ومنطلقة من الاعتقاد بأن ذلك كان هو السبب، أقدمت على إحداث سلسلة من التعديلات في المراتب العليا، لم يفد ذلك في شيء، وبدءًا بشهر شباط/فبراير عام 2008م، فاز أوباما في المؤتمرات والتمهيديات الأحد عشر التالية عبر البلاد، وبفوارق كبيرة في الغالب، وبات لافت التقدم فيما يخص المندوبين؛ كان استثنائي النجاح في التمهيديات حيثما كان الناخبون الأمريكيون الأفارقة، الأكثر شبابًا، خريجو الجامعات، أو الأكثر غنى ممثلين بين صفوف ناخبي هذه التمهيديات.

كنت أفضل حالًا في التمهيديات حيث كان الناخبون ذوو الأصول الإسبانية، الأكبر سنًا، غير خريجي الجامعات، أو العمال البيض هم الأكثرية، بعض قادة الحزب الديمقراطي عبروا عن القلق إزاء احتمال تمخض الحملة المطولة بيننا نحن الاثنين عن إلحاق الضرر بالفائز في المباراة الانتخابية العامة مع المرشح الجمهوري المفترض جون ماكين. لحسن حظ الحزب الديمقراطي، وإن لم يكن لحسن حظي أنا، ذلك لم يحصل.

أواخر آذار/مارس، تعين علي أن أعترف بعدم صحة تصريحاتي الدعائية المتكررة عن التعرض لنيران معادية صادرة عن قناصة إبان زيارة في عام 1996م لقوات أمريكية في قاعدة توزلا الجوية في البوسنة–الهرسك، اجتذب الأمر قدرًا كبيرًا من الاهتمام الإعلامي، وهدد بنسف صدقيتي وادعاءاتي حول

كوني صاحبة خبرة في السياسة الخارجية؛ لم أتعمد الكذب حول الموضوع، إلا أن خيالي يبالغ في التحليق أحيانًا، كان القناصة يطلقون النار فعلًا في مكان قريب، وتملكني الرعب خوفًا من التعرض للإصابة، ومن هذا الخوف شعرت كما لو أن القناصة كانوا قد أطلقوا النار علي أنا. حاولي أن تشرحي ذلك للصحافة!

في الثاني والعشرين من نيسان/أبريل، نجحت في تمهيدية بنسلفانيا، وعادت معنوياتي إلى الصعود إزاء أن احتمال الفوز بالترشيح وارد، إلا أن نشوتي لم تدم طويلًا؛ ففي السادس من أيار/مايو، أدى فوزي الضعيف في إنديانا جنبًا إلى جنب مع خسارة مدوية في نورث كارولاينا إلى وضع حد لأي فرصة واقعية لي في كسب إيماءة حزبي، لم تكن أمي مستعدة للموافقة على أن أكون انهزامية، فصممت على الصمود إلى حين انتهاء التمهيديات المتبقية، وبسبب تعليمها -تعليم أمي- كنت قادرة على تقبل الخسارة، أما الانهزام فلا وألف لا، رغم تقدم أوباما ربحت بعض المباريات الباقية، وبالفعل فإنني إذا حصرت النظر إلى الأشهر الثلاثة الأخيرة من الحملة، اختتمت متفوقة على أوباما من حيث عدد الولايات، وعدد الأصوات، وعدد المندوبين، غير أنني بقيت غير قادرة على التغلب على تفوقه الأولي من حيث عدد المندوبين.

بعد التمهيديات الأخيرة في الثالث من حزيران/يونيو عام 2008م، كان أوباما حاصلًا على ما يكفي من المندوبين ليصبح المرشح، وفي خطاب وجهته إلى أنصاري في السابع من حزيران/يونيو، أنهيت حملتي بعينين دامعتين، فيما كانت أمي تبكي خلف الستارة، وعلى الرغم من أنني كنت محطمة القلب، فإنني لم أتردد في تأييد أوباما بحماسة مطلقة كلامًا من قبيل: «طريقة مواصلة نضالنا الآن لبلوغ الأهداف التي نرنو إليها تتمثل باستنفار كل ما لدينا من طاقة، وشغف، وقوة والمبادرة إلى فعل كل ما نستطيعه للمساعدة على انتخاب أوباما». كل منا كان قد حصل على ما يزيد على سبعة عشر مليونًا من الأصوات إبان عملية الترشيح، متجاوزَيْن الرقم القياسي السابق. لك أن تظني أن من

شأن تحقيق الأرقام القياسية أن يسعدني، غير أنه لم يفعل؛ إنني خاسرة مسكينة، وإن حاولت أن أخفي ذلك.

ألقيت خطابًا مفعمًا بالشغف تأييدًا لأوباما في مؤتمر عام 2008م الديمقراطي القومي، وشاركت مرات في حملة الدعاية له في خريف 2008م، تلك الحملة التي انتهت بفوزه على ماكين في الانتخاب العام يوم الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر. حملتي أنا انتهت رازحة تحت وطأة ثقيلة من الديون؛ كنا مدينين بملايين الدولارات لأنصار خارجيين، شطبت مبلغ ألـ(13) مليونًا من الدولارات الذي كنت قد أقرضته للحملة، كان أبي سيصاب بقدر هائل من الرعب. لحسن حظ راحة بالي وهدوء أعصابي سُدِّدت الديون أخيرًا مع حلول بداية عام 2013م.

بقينا صامتتين لبضع لحظات، ثم قلتُ بحزن: يؤسفني كثيرًا – يا هيلاري – أنك خسرت الانتخاب.

ردتْ: أنا أيضًا آسفة! –صرنا اثنتين!–.